وثائق وصور نادرة خاصة باستشهاد القائد ديدوش مراد

أ.د. علاوة عمارة*

عندما عثرت منذ بعض الأشهر في الأرشيف الفرنسي على وثائق معركة دوار الصوادق الواقعة في بلدية كندي السمندو (Condé-Smendou)، زيغود يوسف حاليا، لم أكن أعلم أني تحصلت على الشهادات الوثائقية الأخيرة الخاصة بأحد رموز الثورة التحريرية؛ فبعد أن احتفظت بها رفقة عدد آخر من الوثائق عرضتها لأول مرة بمناسبة الذكرى الثامنة والخمسين لاستشهاد القائد الكبير ديدوش مراد التي تزامنت مع خمسينية استعادة السيادة الوطنية.

في ملف خاص وضع في غير محلّه[1]، عثرت على التقرير الخاص بمعركة دوار الصوادق الذي حرّر بعد يومين من انتهائها، أي يوم 20 جانفي 1955، والذي يحتوي على خمس صفحات مرفقة بأربع صور فتوغرافية. كما يتضمن الملف أيضا تقرير ناقص ممضى من القبطان بيلان (Biland) قائد مجموعة جندرمة قسنطينة.

بالإضافة إلى عدد من التقارير السابقة واللاحقة لاشتباك دوار الصوادق حول هيكلة نشاط جيش التحرير الوطني بمنطقة كوندي السمندو Condé-Smendou (زيغود يوسف حاليا). كما نجد أيضا بطاقة تهنئة من رئيس بلدية عين البيضاء موجهة إلى رئيس دائرة قسنطينة المدعو ماسوني (Massoni) تهنئ بنجاح عملية القضاء على هذه المجموعة من "الخارجين عن القانون".

سأحاول هنا تقديم تقرير الشرطة القضائية الذي يحمل إمضاء أندري فيلال (André Villele)، الذي كان مفتشا عاما للشرطة القضائية بقسنطينة (الفرقة الأولى المتنقلة) وموجه إلى محافظ ورئيس الفرق المتنقلة للشرطة القضائية بعمالة قسنطينة.

كما يشمل الملف أيضا ختم وإمضاء المحافظ العام للشرطة القضائية جون لاجيني (Jean Lagugne) الذي يؤكد فيه اطلاعه على الموضوع بتاريخ 20 جانفي 1955 وتحويل نسخ منه إلى ديوان الحاكم العام للجزائر وإلى مديرية الأمن العام للجزائر ومتولي عمالة قسنطينة (Le préfet du

*- أستاذ التعليم العالي في التاريخ الوسيط – قسم التاريخ – جامعة الأمير عبد القادر – قسنطينة.

(Le sous-préfet de Constantine، وإلى رئيس دائرة قسنطينة département de Constantine).

ماذا جرى بوادي بوكركر يوم 20 جانفي 1955؟: يبدأ التقرير بعرض ما حدث يوم 18 جانفي 1955م بداية من حوالي الساعة الثامنة والنصف صباحا، حيث يقول: بأن دورية تتشكل من رئيس فرقة جندرمة كوندي السمندو وهو هيج (Huygues) مع قسم من رجاله الذين ساندهم مفرزة الجندرمة المتنقلين التي كانت موجودة في كوندي السمندو بقيادة الملازم ملارب (Malherbe)، اصطدمت في دوار الصوادق، وبالضبط بمشتة قراوة بمجموعة متكونة من عشرات من "الخارجين عن القانون" كانوا مختبئين في الأحراش (الديس) على امتداد مسار وادي بوكركر.

يقول التقرير: إن البداية كانت بفتح "الخارجين عن القانون" للنار على الدورية مما أدى إلى مقتل الجندرمي جوزيف بكون (Joseph Bescond) وإصابة زميله جيلبار لومو (Gilbert Lemoult) بجروح خطيرة في يده اليمنى، مما استدعى استقدام إمدادات إضافية متكونة من الجندرمة المتنقلين ووحدات التدخل السريع (CRS). وبوصول هذه الوحدات، قاد العملية كل من الكمندان مافي بارتيي (Maffi-Berthier)، والقبطان بيلان (Biland)، والملازم ملارب (Malherbe). واستمرت الاشتباكات إلى غاية حلول الظلام.

في نهاية المعركة، كما يضيف التقرير، تمّ إحصاء سبعة جثث تعود "للخارجين عن القانون"، كما تمّ أسر عبد القادر مصباح بسلاحه، وعثر على السعيد شوقي بعدما أصيب بجروح بليغة. ووصل إلى مكان المعركة محرّر التقرير المفتش العام أندري فيلال (André Villele)، رفقة المحافظ العام كامي جايول (Camille Gayol) لجمع المعلومات الكاملة حول العملية.

الاستنطاق: محورية القائد زيغود يوسف في العمليات الثورية في منطقة كوندي السمندو قبل أن يصل التقرير إلى عرض أسماء وهوية شهداء جيش التحرير الوطني في معركة دوار الصوادق، قام المحافظ العام المشار إليه سابقا باستنطاق الأسير عبد الرشيد مصباح بن عيسى، حيث ساعده في مهمته المفتش الرئيسي محمود بوشلعون والمفتشان سنا قيقو (Sanna Gugo) وروني ميشلي (René Michelet).

يقول التقرير بأن المجاهد الأسير اعترف بانضمامه إلى اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) بكوندي السمندو بفضل محمد الصالح ميهوبي، حيث شارك رفقة مجموعة تتكون من عشرين شخصا بمهاجمة مقر جندرمة كوندي السمندو ليلة 13 ديسمبر و1 نوفمبر 1954، بقيادة زيغود يوسف بن

سعيد، حيث يضيف التقرير بأن هذا الأخير هو "شخص خطير جدا، كان قد فرّ من سجن بونة (عنابة) المدني في أفريل 1951م بعدما كان محتجزا بتهمة "المساس بوحدة التراب الفرنسي"، في قضية المنظمة الخاصة (OS). وبعد هجوم أول نوفمبر، رجعت كل المجموعة إلى المنطقة الجبلية بدوار الصوادق في مشتة المغايزية بمساعدة سكان المنطقة، حيث انضم إليهم بعد ذلك خمسة أشخاص.

يقول التقرير المعتمد على تصريحات المجاهد الأسير بأنه وبعد مرور شهر على انطلاقة "الأحداث" وبالنظر لصعوبة التموين، قرّر زيغود يوسف الذي كان يقود العمليات تشكيل مجموعتين: المجموعة الأولى بقيت في مشتة المغايزية "تحت أوامر X... Abdelkader " فيما منحت قيادة المجموعة الثانية إلى عمار بوضرسة المعروف بعيسى، والتي استقرت بدوار الغرازلة، حيث آواها رابح زعبار بمشتة عيون القصب. هذا الأخير تمّ التعرف عليه وتوقيفه قبل هذه الحادثة.

بالنسبة للمجموعة الأولى التي انتمى إليها المجاهد الأسير عبد الرشيد مصباح، يقول التقرير بأن هذا الأخير أوضح بأن زيغود يوسف وبوشريحة عباس وعلي بلوصيف وعمار ريكوح ومحمد الصالح ميهوبي كانوا وراء تخريب خط السكة الحديدية في المكان المسمى Les Deux-Ponts (قنطرة الحديد حاليا)، قرب كوندي السمندو. كما أن زيغود يوسف اختار عباس بوشريحة وعلي بلوصيف لقتل محمد الهادف، وهو حارس حقول (Garde-champêtre)، يوم 18 نوفمبر 1954، لكن العملية لم تؤدي إلى وفاته بعدما تعرض لطلقات جريحة.

وفي الأخير يكون المجاهد الأسير قد اعترف– بحسب التقرير دائما– بأن زيغود يوسف كان وراء اغتيال صالح عليوات يوم 13 جانفي 1955م في جهة سد زردازة (الحروش) وهذا بعدما كلّف العيد غريبي بتنفيذ العملية بفعل رفضه تعويض مبلغ مالي تابع للمنظمة العسكرية. ونسبت إلى هذه المجموعة أيضا محاولة اغتيال حارس الحقول فضيل دليمي قرب بيزو (Bizot)، –ديدوش مراد حاليا– يوم 7 جانفي 1955م، حيث تعرّف هذا الأخير على زيغود يوسف وإبراهيم ريكوح خلال العملية.

إنّ البناء الهيكلي للثورة في منطقة كوندي السمندو كما جرى توثيقه بناء على "اعترافات" المجاهد الأسير عبد الرشيد مصباح، يتناقض مع هيكلة جيش التحرير الوطني في الشمال القسنطيني؛ فالقيادة العليا للمنطقة نسبت إلى زيغود يوسف بمساعدة إبراهيم ريكوح بن المكي، في حين أن القائد الفعلي الذي عينته قيادة الثورة في اجتماع جوان 1954م "سي عبد القادر" لم يكن سوى قائدا لمجموعة فرعية متمركزة في قرية المغايزية.

إنّ قيادة زيغود يوسف لوحدات جيش التحرير الوطني في المنقطة الواقعة بين كوندي السمندو والحروش ووصولا إلى سيدي مزغيش تتوافق مع الوثائق والشهادات المتوفرة[2]، غير أنّ تواجد ديدوش مراد كقائد عسكري لمجموعة صغيرة من المجاهدين لا ينسجم مع الوقائع التاريخية. على الخصوص وأن ديدوش مراد قضى معظم وقته في الانتقال بين قسنطينة وسكيكدة ومختلف البلدات لتوسيع الثورة وإقناع المترددين في الالتحاق بها. فهل أن تصريح عبد الرشيد مصباح يندرج في إطار إخفائه لقيادته المجموعة التي اشتبكت مع الوحدات الفرنسية، رغم أنه متزعمها فعليا بحسب شهادة المجاهد محمد قديد؟ فهذا الأخير كتب أن زيغود يوسف وعبد الرشيد مصباح ومحمد الصالح بلميهوب هم من تولوا مسؤولية مجموعات منطقة كوندي السمندو[3].

سي عبد القادر: قائد شهيد لم يتم التعرف على هويته إنّ محتوى التقرير الذي ينسب إلى المجهول "X... عبد القادر" قيادة مجموعة مشتة المغايزية يؤكد بما لا يدع مجالا للشك فشل الأجهزة الاستخباراتية الفرنسية في اختراق الوحدات القتالية الأولى لجيش التحرير الوطني في الشمال القسنطيني؛ فإذا كانت عدد من التصريحات تزعم متابعة المخابرات الفرنسية لتحركات القائد ديدوش مراد بين مقر عمليات منطقة الشمال القسنطيني في جبل التوميات وبني صبيح ومنطقة الحدائق، فإن ما كتب حول المعركة يؤكد عكس ذلك لأنّ الجهات العسكرية الفرنسية المحلية كانت تجهل تماما وإلى غاية 29 جانفي 1955 أنّ "X...عبد القادر" هو الاسم الحركي للقائد ديدوش مراد. وإلى القارئ التفاصيل:

جاء في الصفحة الثالثة من التقرير هوية "الخارجين عن القانون" الذين تمّ القضاء عليهم في كوندي السمندو يوم 18 جانفي 1955م. كتبت أرقام بقلم الرصاص أمام كل اسم بما يمكن من التعرّف على هويته.

– بن غرس الله بلقاسم المعروف بـ"بن دريس": ولد يوم 7 جوان 1927م بـتل الزيتون (Col des Oliviers) (عين بوزيان حاليا)، ابن ابراهيم بن دريس وعائشة سياري بنت حسين، متزوج مع روني إيفون باروس (Rennée Yvonne Barousse)، دون أولاد. (رقم 5 في الصورة).

– عياش يوسف، أعزب، ولد يوم 4 أفريل 1936 بدوار الصوادق Condé-Smendou، ابن محمد عياش بن علي والمرحومة فاطمة درويش بنت علي (رقم 2 في الصورة).

– عباس بوشريحة: ولد يوم 10 مارس 1935 بدوار الصوادق، ابن عبد الله بن سعد وسكينة بوشريحة بنت عمر. (رقم 4 في الصورة).

– بلوصيف علي، أعزب، ساكن بدوار السبيخة. ولد يوم 11 نوفمبر1934 بدوار السبيخة (Commune de Condé-Smendou)، ابن بلوصيف عبد الله بن علي وبو لعيزب لويزة بن أحمد. (رقم 3 في الصورة).

– قربوعة محمد، فلاح يقطن بدوار كرفان بـ Jemmapes (عزابة حاليا). ولد يوم 5 جوان 1928 في دوار المجابرية بـ Condé-Smendou. ابن قربوعة العربي بن عبد الله وقربوعة فاطمة بنت محمد، متزوج ببوزيد الزهرة بنت محمد. (رقم 7 في الصورة).

– نعاس عمار، فلاح مقيم في دوار الصوادق، ولد في حوالي 1915 بذات الدوار. ابن نعاس زيدان بن الصغير والمرحومة زبير زينب بنت الطاهر، متزوج ببوخاتم فاطمة المعروفة بالطاوس. (رقم 1 في الصورة).

– X..... عبد القادر، عمره حوالي 35 سنة، القامة 1م و75 سم، شعر أسود... شارب على الطريقة الأمريكية...، من علاماته الخصوصية تاج ذهبي مثبّت على الطواحن العلوية اليسرى، وكان يلبس قميصا أبيض وسروالا مدنيا أزرق...

إنّ عملية التعرّف على جثث الشهداء لم تكشف للسلطات الأمنية الاستعمارية حقيقة عبد القادر الذي نسبت إليه عملية قيادة مجموعة مشتة الغنابزية، ولم تكن تعلم أن عبد القادر أو سي عبد القادر هو الاسم الحركي للقائد ديدوش مراد، وهو ما تأكد لها لاحقا. بل إنّ التساؤل المطروح هو هل كان المجاهد الأسير عبد الرشيد مصباح يجهل الهوية الحقيقية لسي عبد القادر؟ ولماذا لم ينسب إليه قيادة منطقة الشمال القسنطيني وربطها بالقائد زيغود يوسف؟ أم أنّ المعني تجنّب الكشف عن هوية القائد؟

إنها أسئلة تطرح من خلال الاطلاع على محتوى التقرير الميداني. إنّ الصور الملحقة بالتقرير العام أو محضر المعاينة تؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأن الجثة التي تحمل رقم 6 هي للقائد ديدوش مراد. إنّ هذه الصور تبقى نادرة بالنظر للمدة القصيرة التي قضاها المعني في قيادة العمليات الثورية في منطقة الشمال القسنطيني.

إنّ الوثائق الملحقة التي حرّرت بين 20 و29 جانفي 1955م تستمر في جهلها بالهوية الفعلية لديدوش مراد، فعلى سبيل المثال تتحدث وثيقة سرية أمضاها رئيس دائرة (Le sous-préfet) قسنطينة يوم 29 جانفي 1955م عن "عصابة المتمردين في ناحية كوندي السمندو" جاء فيها خصوصا تأكيد مقتل المجاهدين المشار إليهم سابقا بأسمائهم ما عدا ديدوش مراد الذي ورد باسم X.... Abdelkader، مع إضافة توقيف مجاهد آخر وهو رابح بوشريحة بن أحمد.

أسلحة خفيفة: يتطرق التقرير إلى الأسلحة التي وجدت بصحبة شهداء معركة دوار الصوادق، ويقدم جردا شاملا مكتوبا وبالصور، حيث كانت في غالبيتها المطلقة بنادق إيطالية قصيرة (carabines italiennes) متعددة النوعيات (Statii, Berrater, Beretta) وبندقية كندية وبندقية إيطالية ومسدس، وقنابل تقليدية و56 خرطوشة عيار 7،65 و26 خرطوشة عيار 9 ملم و15 وعلبة بها 70 صاعق، و144 خرطوشة لبنادق statti، و376 خرطوشة كندية، وعلبة منشورات خاصة، وأغراض أخرى مختلفة.

بهذه الأسلحة الخفيفة استطاع مجاهدو جيش التحرير الوطني (عددهم على أرجح الروايات 17 عنصرا) مقاومة وحدات الشرطة والجندرمة لأكثر من ثمان ساعات، وتبيّن أن الوحدات القتالية لجيش التحرير الوطني بمنطقة كوندي السمندو (زيغود يوسف حاليا) كانت في طور التكوين والتنظيم.

مُعطيات جديدة: تجمع الشهادات المتوفرة خصوصا تلك التي دوّنها المجاهد محمد قديد مرافق ديدوش مراد في تنقلاته في الشمال القسنطيني على استقرار هذا القائد في معظم وقته في قيادة المنطقة بجبل التوميات[4]. غير أن اسم ديدوش مراد أو اسمه النضالي سي عبد القادر لم يرد بتاتا في التقارير المتوفرة التي سبقت معركة دوار الصوادق. فعلى سبيل المثال، يتحدث تقرير أرسله القبطان بيلان إلى رئيس فيلق جندرمة قسنطينة بتاريخ 12 جانفي 1955م عن عصابة متمردة في شرق كوندي السمندو حيث تمّ التعرف على عناصرها بناء على الاعترافات المتنوعة من ريكوح أحسن وبوضرسة مسعود وبوضرسة عبد الله الذين جرى توقيفهم في نهاية ديسمبر 1954م. في قائمة طويلة ورد على رأسها بوضرسة عمار وزيغود يوسف لا نجد أثرا لديدوش مراد رغم تمركزه بالجهة.

إنّ تكثيف الدوريات في المنطقة، والتنسيق الأمني مع الجهات الأمنية في سكيكدة كانت من المطالب الأساسية للقبطان بيلان، حيث اعترف في تقريره بنقص المعلومات وصعوبة المواصلات في مجال متميّز بتضاريس صعبة.

إنّ الرواية الأكثر انتشارا حول معركة دوّار الصوادق واستشهاد القائد ديدوش مراد هي تلك التي نشرها المراسل إيف كوريار (Yves Courrière) في كتابه المعروف "حرب الجزائر"؛ ففي هذه الرواية نرى إقحاما لوحدات الجيش الفرنسي بقيادة الكلونيل ديكورنو (Ducournau)، ومما جاء فيها: "بداية من جانفي، اصطدم ديدوش وزيغود بقوات ديكورنو الفعّالة، حيث ترك هذا الأخير الأوراس في محاولة لمنع الشمال القسنطيني من تتبع الأوراس".

يذكر إيف كوريار بأن قائدا جبهة التحرير الوطني قرّرا التنقل من شمال الحرّوش إلى قالمة، لكن وجب عليهما إيجاد ملجأ في كوندي السمندو بالنظر للمراقبة التي فرضتها القوات الخاصة، وعندما وصلا الرجلان إلى كوندي السمندو في الساعة الثالثة صباحا لاحظهم العملاء الذي أبلغوا الجندرمة. وفي الساعة السادسة والنصف صباحا تقدّم سبعة عناصر من الجندرمة حيث اشتبكوا مع سبعة عشر مقاتلا لجيش التحرير الوطني في أرض مسطحة وعارية، حيث طلب الجندرمة مساعدة الكلونيل ديكورنو بالحرّوش، والذي أرسل في الحين 400 مقاتل من القوات الخاصة؛ فكانت الحصيلة مقتل 12 من جيش التحرير الوطني من بينهم ديدوش مراد وأسر اثنين[5].

هذه التقارير التي عرضناها تفند هذه الرواية حيث أن القوات الخاصة لم تشارك في المعركة، كما أن عدد شهداء جيش التحرير الوطني لم يتجاوز السبعة، في حين أن عدد المشاركين تؤكده الوثائق حيث تشير إلى نجاة عدد من المقاتلين منهم الإخوة ريكوح وبولعراس بوشريحة.

الهوامش:

1-Archives Nationales d'Outre-Mer (ANOM), Aix-en-Provence, 9314-101

2- محمد قديد، الرد الوافي على مذكرات علي كافي، (د. ت. ن)، 2012، ص .31

3- نفسه، ص 42.

4- محمد قديد، المصدر السابق، ص 27–30.

5-Yves Courrière, La Guerre d'Algérie, vol. 2 : Le temps des léopards, Alger, Casbah éditions, 2005, p. 148-149

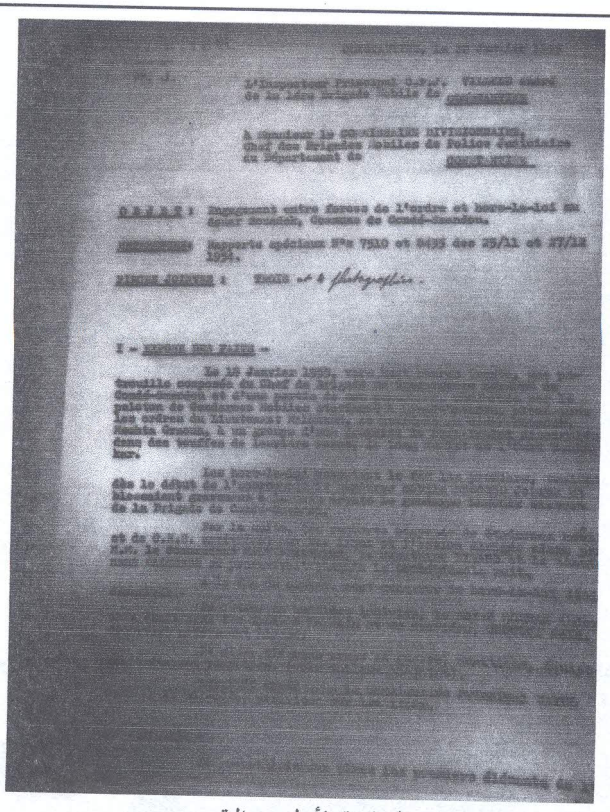

الصفحة الأولى من التقرير

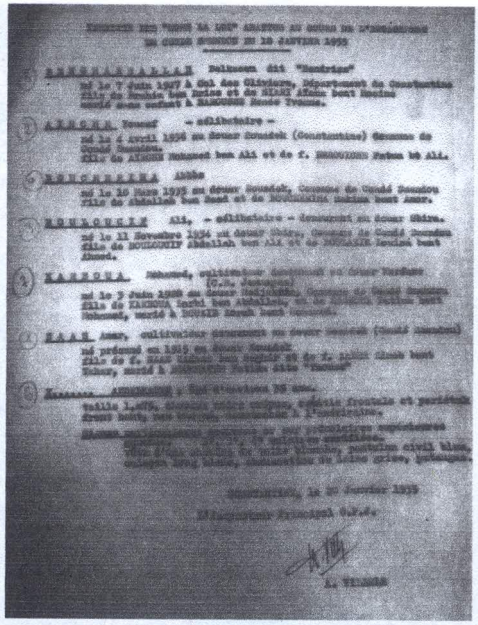

هوية الشهداء: رقم 6: سي عبد القادر، وهو الاسم الحركي لديدوش مراد

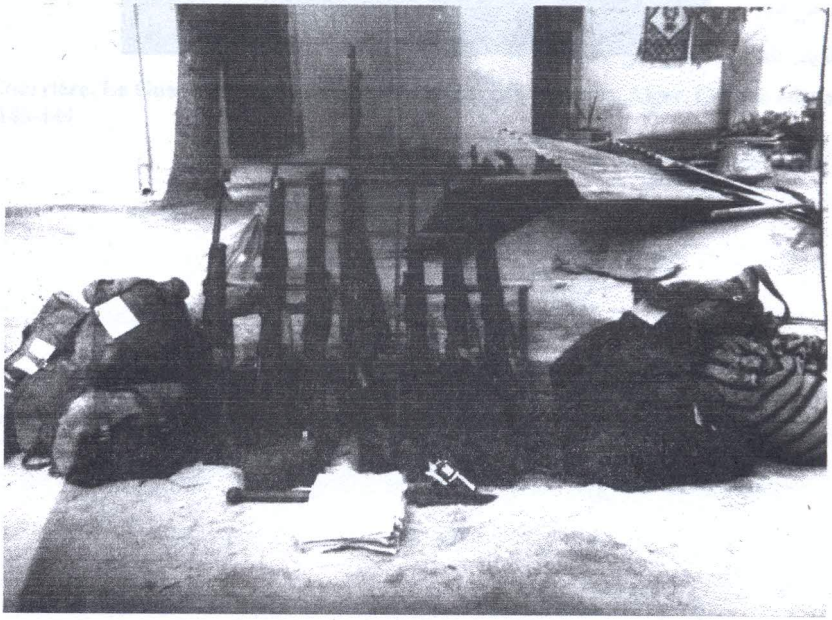

صورة للأسلحة التي كانت بحوزة الشهيد ديدوش مراد ورفاقه

رقم 6 في الصورة: جثة القائد الشهيد ديدوش مراد